وإنّها لمتعة لا تملّها العين، ولا ترتوي منها الأذن، ولا يشبع منها الخيال أن ترقب قوافل الفصول تدرج من شاطىء البحر في لبنان إلى القمم، ومن القمم إلى شاطىء البحر، وقد قطرت أوائل هذه بأواخر تلك، فراحت كلّ قافلة تنثر في طريقها ممّا احتوته أعدالها: فهذه تنثر أزهاراً وأنواراً، وأغاريد أطيار، وهدير شلالات، ووشوشات نسمات. وتلك بقولاً وحبوباً وثماراً، ونهارات محمومة بالعمل، مغسولة بالعرق، وليالي تتغامز كواكبها في غمرة من الأنس والسلام. وهاتيك تنثر بروقاً ورعوداً وعواصف وفلذات تصعد من البحر مع الريح فتنثرها الريح على الجبال وإذا بها وشاح فائق البياض والسناء.

ولبنان، إلى ذلك، وديع ولطيف وكريم. لا يتكبّر ولا يتجبّر ولا يحبس محاسنه عن طالب. فما اشمخرّ بقممه إلى حدّ أن تعصى على الجناح والقدم. ولا انحدر بأغواره إلى حدّ أن تحتجب عن العين والأذن. بل أباح أعاليه لكلّ من آنس من نفسه النشاط لتسلّقها والرغبة في الانتشاء بسحر الأعالي. مثلما أباح أغواره لكلّ من شاء أن يستحمّ في سكونها وسلامها. أمّا ظلاله الخلاّبة، وأنواره الدفّاقة، وأصواته الموّاجة، وألوانه المتبدّلة في كلّ طرفة عين فمبذولة في كلّ ساعة من النهار والليل لكلّ من يسمع ويبصر.